القرآن مضموناً ولغة عامل جوهري في وحدة الفكر بين العرب والمسلمين ...

ولكن تعلم اللغات لا يزال الجسر الوحيد إلى العلم والمعرفة

الأستاذ خليل الهنداوي

حلب (سوريا)

لم يعرف دين من الاديان ذلك التلازم او الارتباط مع دين اللغة التي نزل فيها ، او عبر بها عن اغراضه ، كالاسلام .

وهو امر لا يحتاج الى المناقشة ، مادام القرءان الذي هو عمدة الاسلام ، يجعل بيانه احدى معجزاته. وهو الذي تحدى العرب ، وهم في اوج فصاحتهم المعبودة ، ان يأتوا بمثله ، او بسورة من سوره !

والبيان القرءاني تفنن في تفهمه ، وتوضيحه ، وتعليله اقطاب البلاغة في كل عصر ، وضربوا حوله دراسات متنوعة ، وآخرهم عبد الرحمان الرافعي – وهو من هو في عالم البيان – في كتابه « تاريخ آداب العرب » اذ خصص جزءا كاملا من اجزائه الثلاثة في دراسة بيان القرآن »

ولما انتشر الاسلام في ارض العرب وغير العرب ، كان القرءان مصاحبا لهذا الانتشار ، لان الاسلام ، من شعائره الاساسية ترديد آيات من القرءان في كل صلاة ، والرجوع الى القرءان في بيان الاحكام والعبادات . فهو دستور كل مسلم – عربيا كان أو اعجميا –

ولذلك كان على كل من اتخذ الاسلام دينا ان يرجع الى القرءان وان يردد بعض آياته في صلاته ، وان لم يفهمها ، وان يتفهم آيات منه للاطلاع على حقيقة الاسلام .

الاسلام نفسه مظهر من مظاهر اللغة العربية ، كما ان اللغة العربية وعاء من اوعية الاسلام ، فهما متلازمان لا ينفصلان .

ومن هنا يأتي دور حماية اللغة العربية من الاندثار ، كما اندثر الكثير من اخواتها الساميات في سالف العصور .

ومثلا على ذلك ، في حالة مد الاسلام حمل معه اللغة العربية الى الاقطار المفتوحة ، ونشرها واذاعها حتى اصبحت **اللغة الاولى فيها** . وليس التاثير الفارسي بها عنا ببعيد ، فبلاد «فارس» بلاد بعيدة كل البعد عن ان تكون قطرا من اقطار العرب ، ولكن الاسلام ادناها من العرب ، وكان من الفرس ادباء وعلماء وشعراء لا يقلون منزلة عن الادباء والعلماء والشعراء في العرب ، وذلك لان الاسلام الفهم وجمعهم على حب البيان العربي ، لانه بيان القرءان .

والفتح العربي – في حالة جزره – حين انحسر عن تلك الاقطار ابقى القرءان فيها علامة واضحة ، وان لم يبق فيها كلغة متميزة .

وفي حالة استيلاء العثمانيين على الوطن العربي، لم ينقذ اللغة العربية من الاندثار الا القرءان . لان العثمانيين كانوا مسلمين ، والمسلم لا يستطيع ان يناهض القرءان ، ما دام هو لغة دينه ! ولو ان الاحتلال كان اجنبيا ، دينه غير دين الاسلام لكان ، هنالك ، كارثة زعزعت اللغة العربية ، ولعل في قوله تعالى ابلغ معجزة : « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » .

وما دام الامر كذلك بالنسبة الى الاعاجم فانه سيكون اشد وقعا بالنسبة الى الاقطار العربية التي تتكلم اللغة العربية ، فهذه الاقطار – برغم وقوعها

تحت الحكم غير العربي ـ بقي وعيها الاسلامي ، ووازعها الديني يربطانها باللغة العربية . وكثيرا ما تقلصت اللغة العربية في بعض المجالات ، كالدواوين والمدارس التي جعلت اللغة التركية اللغة الاولى، الا انها ثبتت كلغة للتعبير ، وظل القرءان النفحة (او القرار) الذي يتردد كل يوم في الجوامع والبيوت ، وفي كل مكان ، مما جعل العرب يرتبطون بلغتهم ارتباطا دينيا مقدسا .

وغداة الوعي القومي الذي انتشر ، وذيوع التعليم عادت اللغة العربية الى وجودها المستقل وشخصيتها المتميزة .

اما مدى تاثير الفكر الاسلامي ، عن طريق لغة القرءان ، في الاقطار الاسلامية غير العربية ، فهو ظاهر في صلب هذه اللغات نفسها، وفي شكل حروفها التي لا تختلف عن الحروف العربية . حتى دخل في فنونها، ورسم خطوطها، فقيل « الخط الفارسي ، والخط العثماني او الخط الرقعي ، كما قيل الخط الكوفي » ، وقد تجردت اللغة التركية على الحرف العربي لعوامل سياسية .

اوليس ، بعد ذلك ، من معجزة اللغة العربية ان الجاليات الاسلامية ، في الاقطار الغربية، او الاسيوية، او الافريقية ابقت نفس اللغة ؟ وقد تختلف اللهجات الدارجة ، ولكن لا يختلف سواء التعبير الفصيح ، لان **القرءان هو الذي جمعها على وحدة التعبير ، والكتابة بالفصحى التي هي لغة القرءان ؟**

وما ذلك الا لان القرءان يوحد بينها ، ويجمع بينها . فالشاعر العربي ـ في كل قطر ـ يتخذ لنفسه الشكل العربي التقليدي نفسه ، والكاتب يكتب لكل من يقرأ العربية بلغة القرءان نفسها .

اما بقية اللهجات واللغات الاقليمية فامر انتشارها يعود الى زمان انقطعت فيه اواصر الاجتماع، وجفت موارد اللغة ، ونشت الاعجمية : حتى بات لكل قطر لهجة ، ولكل ثوب رقعة ! وقد تتقارب هذه اللهجات ، وقد تتباعد عن الاصل بحسب مواضعها ومواقعها من الكلام .

ولكن هذه اللهجات صائرة حتما الى ان تنصهر وتتهذب وتنقى بفضل التعلم والوعي ، حتى تعود الى المصدر الذي انفصلت عنه . والشاهد على ذلك هذه الصحف والمجلات والاذاعات التي لا تحيد عن الفصحى .. ولن يكون ذلك اليوم الذي تتوحد فيه ببعيد !

اما بالنسبة الى اللهجة الاقليمية عندنا ـ في سورية ـ فهي من اللهجات التي يقل فيها البعد عن جوهر اللغة الاصيلة باعتبار موقعها الوسيط بين الاقطار العربية . وما دخلها من حوشي الالفاظ ، والتواء التعابير انما يعود الى العهود المالكة التي امتزجت فيها الاجنبية بالعربية ، نتيجة لضياع حريتها ، وان لم تضع شخصيتها !

والآن، كيف يمكن ان نحدد المكانة التي يجب ان تحتلها العربية بالنسبة للغات الاجنبية ؟

لا تعصب اذا قلنا « العربية اولا ، ثم اللغات الاجنبية ثانيا » .

واذا قدر لاسلافنا ان يطلعوا اطلاعا ضيقا على **تراث الثقافات الاجنبية في عهودهم بواسطة الترجمة والنقل ، فان تبدل الحياة وتطور العالم ، وتقدم العلم الذي لا وطن له يدعونا الى عدم الاكتفاء بالعربية وحدها،** ولنا اسوة في غيرنا الذين يتقنون على الاقل لغة اجنبية بجانب لغتهم ، وهم اقل حاجة اليها منا .

بينما نحن نحتاج الى اللغات الاجنبية ، وسنظل نحتاج اليها زمنا طويلا ، لانها الآن تحمل عنوان الثقافة ، ولا تزال هي الجسر الوحيد الى المعرفة ، وتطور العصر .

والذين يقولون بالاكتفاء باللغة العربية لاي سبب كان انما يدعوننا الى عزلة ثقافية عن العالم . والعزلة الثقافية في حياة شعب انما هي دفنه عن ركب الحضارة ، حتى يتفتت ، ويذوب كيانه ، ويتلاشى في مهب الثقافات .

اننا لا نزال في دور التكوين : ودور التكوين يتميز بالاقتباس . وحين سنجد انفسنا وياتي دورنا في المشاركة في الابداع الحضاري ، تعود لغتنا الى احتلال المكانة المرموقة بين لغات العالم . واللغة والثقافة اليوم هما توأمان لا ينفصلان .